

## نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور ابراهيم يومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٣ —

أسلفنا القول عن إحدى الشخصيتين اللتين أثارنا مشكاة النبوة أثناء القرن الثالث والرابع للهجرة في شكل حاد ، ونفى بها ابن الراوندى . واليوم نريد أن نتحدث عن الشخصية الأخرى التي ليست أقل من الأولى خطراً في هذا المضمار والتي ربما كانت أعرف لدى جمهور القراء : وهي شخصية أبي بكر محمد بن زكريا الرازى الذى ولد سنة ٢٥٠ هجرية بالرى حيث تعلم الرياضيات والفلك والأدب والكيمياء . ويظهر أنه لم يتقدم للدراسات الطبية إلا بعد أن بلغ سنًا خاصة ، ولكنه لم يلبث أن برز فيها على جميع معاصريه وأحرز شهرة كبيرة . فصار ينتقل من بلاط إلى بلاط ، ومن مدينة إلى مدينة ، يشرف على مستشفياتها ويأخذ بيد الملاج والطب فيها . وكان في كل هذا يحن إلى الرى ويود إليها من حين لآخر إلى أن توفى بها في العقد الثانى من القرن الرابع<sup>(١)</sup> . وليس هناك شك في أن الرازى هو أكبر طبيب في الاسلام ، بل وفي القرون الوسطى على الاملاق . فقد أحاط بكل النظريات الطبية القديمة وأدخل عليها عناصر جديدة هدته إليها تجاربه الكثيرة ، ومنح الكيمياء كذلك قسطاً كبيراً من عنايته ، ودرسها دراسة واقعية تجريبية قضت على كثير من الخرافات والأباطيل التي لصقت بها في ذلك العهد . ولم يكن الرازى طبيباً وكيميائياً فحسب ، بل اتجه نحو الفلسفة وكتب فيها عدة أبحاث . ولقد كان حريصاً كل الحرص على أن يلتقى بالفيلسوف ؛ ولذلك لما أحسن أن بعض معاصريه ينكرون عليه هذا اللقب سارع إلى الرد عليهم ، وبين في رسالة خاصة سميات الفيلسوف العملية والعملية محاولاً أن يطبقها على نفسه<sup>(٢)</sup> . وهو

في طبه وفلسفته واثق من نفسه كل الوثوق وإلى درجة لا تكاد نجد لها لدى أى شخص من مفكرى الاسلام . فهو ينتقد جالينوس في بعض آرائه ، ولا يتردد في أن يرفض فريقاً من النظريات الأرسطية ، ويضع نفسه في مصف أبقراط وسقراط من الأطباء والفلاسفة السابقين<sup>(٣)</sup> . وفوق هذا فهو لا يسلم بتلك الجملة المشهورة : « ماترك الأول للآخر شيئاً » ويمتد على العكس منها أن السابقين تركوا لللاحقين أشياء كثيرة . وقد استدرك هو نفسه على القدامى جزءاً من تفهيم وأصلح بعض أخطائهم . ولا نظنه ينكر علينا إذا حاولنا اليوم أن نثبت ما في آرائه من ضف أو خطأ ، وما أشبهه في هذا بيبكون بين الطيبين والفلاسفة المحدثين . وليس بغريب أن يقف هذا الموقف أشخاص ينادون بالتجربة ويؤمنون بنظرية التقدم العلمى المستمر . فالرازى إذن مجدد وذو آراء مستقلة يجدر بنا أن نعرفها بصرف النظر عن خطئها أو صوابها ، شدوذها أو اعتدالها .

لم تسبق لنا الأيام ، وبالأسف ، كثيراً من مؤلفات الرازى الطبية والكيميائية والفلسفية ، إلا أننا ربما كنا أعرف بطبه وكيميائه منا بفلسفته . والسبب في ذلك أن الباحثين من المحدثين عنوا بالرازى الطبيب والكيميائى أكثر من عنايتهم بالرازى الفيلسوف . ونحن لا ننكر أن جانبه العلمى أوضح وأقوى من جانبه الفلسفى ، وأن ما وصل إلينا من كتبه الطبية والكيميائية يزيد نمبياً على خلفاته الفلسفية . بيد أن في فلسفته جرأة وغبابة تدفع الباحث إلى دراستها وتفهمها . وإذا كانت شدوذها وخروجها على المألوف هما من دواعى الاعراض عنها والتنفير منها فأنهما في الوقت نفسه من وسائل الترغيب فيها والتشويق إليها . ونعتقد أننا نستطيع الآن أن نكون عنها فكرة كاملة على ضوء ما نقله أبو حاتم الرازى والبيرونى والكرمانى ونصيرى خسرو ، وبعض الرسائل القليلة التي وصلت إلينا والتي كتبها الرازى نفسه . لأن كان الرازى قد اشتغل بالفلسفة فإنه يفتقر عن فلاسفة الاسلام المروفين في نواح كثيرة . فهو يهاجم أولاً أستاذهم وزعيمهم أرسطو ويخرج على كثير من نظرياته الطبيعية واليتافيزيقية<sup>(٤)</sup> .

(١) البيرونى ، رسالة في فهرست كتب محمد بن زكرياء ، ص ١٣ .

أبو حاتم الرازى ؛ أعلام النبوة (in orientalis، 1936) ص ٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ من المخطوطة

(١) لا يعرف بالذقة تاريخ وفاته ، فمن قائل إنه سنة ٣١١ وآخر سنة ٣٢٠ ؛ ועל أرجح الروايات ما ذهب إليه البيرونى من أنه في الخامس من شعبان سنة ٣١٣

(٢) الرازى ، السيرة الفلسفية ، نشره الميوكوراس في Orientalis

طائفة أن ينقض بعضها في كتابه الآنف الذكر . ومما يؤسف له أن مخطوطة أعلام النبوة الوحيدة ، التي وصلت إلينا ، بدون مقدمة ؛ وينبغي على الظن أن هذه المقدمة المفقودة كانت تشتمل على غرض الكتاب والدافع إلى تأليفه<sup>(١)</sup> . فكتاب أعلام النبوة يقفنا على الاعتراضات الرئيسية التي وجهها الرازي إلى النبوة وأثرها الاجتماعي ؛ وعليه نعتمد هنا أولاً وبالذات

وهذه الاعتراضات في مجملها تقرب بعض الشيء من الاعتراضات التي أثارها ابن الراوندي من قبل . وكأن الرجاين يردان نعمة واحدة ويصدران عن أصل معين ، أو كأن تعاليم هندية وآراء مانوية اختفت وراء حملتها . ونحن نعلم من جهة أخرى أن الرازي يقول بالتناسخ الذي عرفت به السُّننية من الهنود ، ويتشيع للمانوية الذين كانوا يدسون في غير ملل للإسلام ومبادئه ؛ ولا يبعد أن يكون قد وقف على نقد الاغريق للديانات على اختلافها . وسواء أكان الرازي متأثراً بموامل أجنبية أم مبرأً عن آرائه الشخصية فإنه يصرح بأن الأنبياء لا حق لهم في أن يدَّعوا لأنفسهم ميزة خاصة ، عقلية كانت أو روحية ، قال الناس كلهم سواسية ، وعند الله وحكمته تقضى بالامتياز واحد على الآخر . أما المعجزات النبوية فهي ضرب من الأقاصيص الدينية أو اللباقة والمهارة التي يراد بها التبرير والتضليل . والتعاليم الدينية متناقضة يهدم بعضها بعضاً ولا تتفق مع المبدأ القائل إن هناك حقيقة ثابتة ؛ ذلك لأن كل نبي يلقي رسالة سابقة ويتأدى بأن ماجاء به هو الحق ولا حق سواه ؛ والناس في حيرة في أمر الأمام والسأموم والتابع والتبوع . والأديان في مجملها هي أصل الحروب التي وقعت فيها الانسانية من قديم ، وعدو الفلسفة والعلم . وربما كانت مؤلفات القداي أمثال أبقراط وأقليدس وأفلاطون وأرسطو أنفع من الكتب المقدسة<sup>(٢)</sup> . يقول الرازي : «الأولى بحكمة الحكيم ورحمة الرحيم أن يلهم عباده أجمعين معرفة مناقهم ومضارهم في عاجلهم وآجلهم ولا يُفضل بعضهم على بعض ، فلا يكون بينهم تنازع ولا اختلاف فيهلكوا . وذلك أحوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمة

ويبالغ ثانياً على العكس منهم في التعلق بأهداب الآراء الزردكية والمانوية والمعتقدات الهندية<sup>(٣)</sup> . وينكر أخيراً كل الإنكار محاولتهم التوفيق بين الفلسفة والدين . ويرى أن الفلسفة هي السبيل الوحيد لإصلاح الفرد والمجتمع ، وأن الأديان مدعاة التنافس والتطاحن والحروب التالية . وقد كتب كتابين عدما البيروني بين الكفرات ، وهما : مخاريق الأنبياء أو حيل التنبيين ، ونقض الأديان أوفى النبوات<sup>(٤)</sup> . وقد صادف الكتاب الأول نجاحاً لدى بعض الطوائف التي انتشرت فيها الزندقة والألحاد وخاصة لدى القرامطة<sup>(٥)</sup> . ويذهب الأستاذ ماسنيون إلى أن أثره تعدى إلى الغرب وكان منبع تلك الاعتراضات التي وجهها عقليو أوروبا إلى الدين والنبوة في عهد فردريك الثاني<sup>(٦)</sup> . وحتى اليوم لم يقف له على أثر بين المطبوعات والمخطوطات العربية . وأما الكتاب الثاني فقد وصلنا منه فقرات عن طريق غير مباشر في كتاب أعلام النبوة لأبي حاتم الرازي المتوفى سنة ٣٣٠ هجرية . وأبو حاتم هذا من أكبر دعاة الاسماعيليين الذين أبلوا بلاء حسناً في طبرستان وأذربيجان في أوائل القرن الرابع للهجرة . وقد كان معاصراً وموطنياً للرازي الطيب ، ودارت بينهما مناقشات حادة ومتعددة حضرها بعض العلماء والرؤساء السياسيين وقد شاء أبو حاتم أن يدون هذه المناقشات في كتابه أعلام النبوة . حقا إنه لا يصرح في هذا الكتاب باسم الرازي ويكتفي بأن يوجه تقدمه إلى من سماه الملحد ؛ غير أن هناك أدلة قاطعة على أن هذا الملحد ليس شخصاً آخر سوى الرازي . فان حميد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٤١٣ هـ وزعيم الدعوة الاسماعيليين في عصر الحاكم بأمر الله يصرح في كتابه الأقوال الذهبية بأن مناقشات في النبوة والناسك الشرعية دارت بين الرازي والشيخ أبي حاتم بجزيرة الري أيام سمردادج وفي حضرته<sup>(٧)</sup> . والكرمانى حجة في هذا الباب فإنه أعرف ما يكون بأخبار الاسماعيليين زملائه ومواقف الرازي وآرائه التي أخذ على

(١) البيروني ، رسالة ، ص ٣ - ٤

(٢) للصدر نفسه ، ص ٢٠

(٣) البنادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٤١

(٤) Masignon, R. H. R., 1920. — cf. Encyc. de l'Islam R3z.

(٥) الكرمانى ، الأقوال الذهبية ، ص ٤ من مخطوطة في مجموعة المحدثين

(١) هذه المخطوطة من مجموعة المحدثين أيضاً ، وقد بدأ المسوكراس الذي وقفنا عليها منذ زمن بنصر أجزاء منها في Orientallo ، وترجو أن يتابع نشره كي تتجلى هذه النواصير الغامضة

(٢) P. Kraus et Pines, Encyc. de l'Islam, Fasc. 54, . 1136. (٢)

إلا أن الاسماعيلية بوجه خاص قد بذلوا في هذا المضمار حمة عالية ومجهوداً صادقاً؛ ومعظم الردود على منكرى النبوة إنما وصلتنا عن طريقهم. وليس هذا بغير، فإن الاسماعيلية في تأليفها الدينية ومبادئها السياسية تقوم على النبوة وتتمتع عليها

في هذا الجو المملوء بالحوار والمناقشة في موضوع النبوة الخطير نشأ الفارابي، وكان لا بد له أن يقاسم في هذه الحركة بنصيب. لاسيما وهو معاصر لابن الراوندي والرازي معا؛ فقد ولد سنة ٢٥٩ هجرية وتوفي سنة ٣٣٩. ويروي المؤرخون أنه كتب ردين، أحدهما على ابن الراوندي والآخر على الرازي؛ ونأسف جداً للأسف لأن هذين الردين لم يصلنا (١). وقد نستطيع أن نتكهن بموضوعهما على ضوء الملاحظات السابقة. فإنه لا يتوقع أن يرد الفارابي النطق الفيلسوف على ابن الراوندي إلا في شيء يتصل بالنطق والجدل اللذين أدخل الأخير بقواعدهما، أوفى مبدأ من صايد الفلسفة والآلهيات التي خرج عليها (٢)

ولا بد أن يكون الفارابي، وهو الأرسطي المخلص والمعنى بالسياسة والاجتماع، قد أخذ على الرازي كذلك أشياء كثيرة، في مقدمتها التهجيم على أرسطو وإنكار مهمة الرسول السياسية والاجتماعية. على أن الفارابي لم يكتف بهذا الموقف السلبى وهذا الدفاع الذى إن ردَّ عن النبوة بعض خصومها الحاضرين فهو لا يمنحها أسلحة تستعين بها على هجمات المستقبل. وعلى هذا أجهد نفسه في أن يقيم النبوة على دعائم عقلية ويفسرها تفسيراً علمياً، وبذا استطاع أن يبطل كلمة أنصار العقل الموهومين، ويحرض دعوى المتفلسفين الذين يزعمون أن الدين لا يمكنه التآخي مع الفلسفة، ولا القرب منها. ومن غريب المصادفات أن هذه الدعائم الجديدة ترجع إلى أصل أرسطى؛ فكان الفارابي قد تمكن في نظرية النبوة أن يصبو إلى هدفين ويحظى بناتيتين، فأسس الأديان تأسيساً عقلياً فلسفياً وأبان للناس أن أرسطو الذى تهجم عليه الرازي وأنكره آخرون جذير بحظ كبير من الاجلال والتقدير

(تجمع) إبراهيم بيرى مكره

لبعض فتصدق كل فرقة أمامها وتكذب غيره، ويضرب بعضهم بالسيف ويعمّ البلاء ويهلكوا بالتعاضد والمجادبات، وقد هلك بذلك كثير من الناس كما نرى (١)»

نظننا في غنى عن أن نشير إلى أن أقوال الرازي هذه تمثل أعنف حملة وجهت إلى الدين والنبوة طوال القرون الوسطى. بيد أن الشيخ أباحتم استطاع أن يقابل هذه الحملة وجهاً لوجه ويحذلها، وأن يهدم هذه الفتنة من أسسها. وفي كتابه أعلام النبوة صفحات نفيس الحاماً والمجازاً، ومناقشات تسد على الكابرين والمماندين سبل التخلّص والفرار. وحيداً لو نشر هذا الكتاب في مجلته فضم آية إلى آيات الاسماعيلية الكثيرة وأثر إلى آثارهم المليئة النفيصة. وأبو حاتم ممن أحسنوا الجدل والنقاش والأخذ والرد. وكيف لا وهو داع مهمته أن ينتصر لدعوته، ويردّ عنها شبه الخصوم والمعارضين؟ فهو لا يرد على الرازي بقضايا مسلمة وأدلة مشهورة، وإنما يحمله على أن يرفض نفسه بنفسه، ويبين له أن أقواله وآراءه متهافنة ومتناقضة (٢) وهو فوق هذا لا يتكلم باسم الاسماعيلية وحدهم، بل باسم الإسلام والعقل والانسانية جماء. ذلك لأن مشكلة النبوة لا تتصل بفرقة دون فرقة، ولا تنفى طائفة منفردة من طوائف الإسلام. وقارىء كتاب أعلام النبوة لا يشعر مطلقاً أنه يحمل شارة خاصة على عكس كتب الفرق المختلفة. وهنا نقطة نحب أن نلفت النظر إليها، وهى أن حملة الرازي وابن الراوندي من قبله على الأديان والنبوات أثارَت الأوساط الإسلامية على اختلافها، وحفزتها إلى الدفاع عن معتقداتها. فأبو على الجبائي (٣) الكبير (التوفى سنة ٣٠٣ هـ) وابنه أبو هاشم (٤) (التوفى سنة ٣٢٤ هـ). المعتزليان، وأبو الحسن الأشعري (٥) (التوفى سنة ٣٢٤ هـ). زعيم أهل السنة وأوامن واجهم أن يردوا على ابن الراوندي؛ ومحمد بن الهيثم (٦) الفلكي والرياضي (التوفى سنة ٤٣٠ هـ) أخذ على عاتقه أن يتقضى رأى الرازي في الآلهيات والنبوات.

(١) أبو حاتم، أعلام النبوة (in Orientalio) ص ٢٨

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢

(٣) ابن الجوزى، فرق الشيعة، ص XX

(٤) M. Horten, Die philos. Sys., p: 364.

(٥) Spitta, Zur Gesch. Abu, l. Hasan al - as'ari, p. 63.

(٦) Kraus, Riviatu, 1934, p. 363.

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون، ١١، ١٣٩. — القفطى، تاريخ،

٢٧٩، ٢٨٠

(٢) ينبنى أن نلاحظ أن ابن أصيبعة بصرح بأن الفارابي كتب كتاباً

في الرد على ابن الراوندي في آداب الجدل، والقفطى يسد هذا كتابين:

أحدهما في آداب الجدل والآخر في الرد على ابن الراوندي